"طـيـــور الـحـــب" تقاسما الموت والألم

وســط حرب الإبادة المســتمرة على قطاع غزة حيث يمتزج صــوت الأذان بأزيز الطائرات، ومن بين الركام وصــدى الإنفجارات وحيث تحاول الأرواح أن تتشــبث بما تبقى من حياة، تعيش علا عبد ربه إبنة الاثنين وعشـرون ربيعًا، حكاية تختصـر كل معاني الحب والحرب والفقد معًا.

كانت علا طالبة متفوقة بتخصــص الهندســة الكهربائية في الجامعة الإســلامية، فتاة تحمل في قلبها حلمًا أن تتخرج وتفرح عائلتها بها وتشـــق طريقها في عالم مليء بالإنجازات، لم يكن في تفكيرها ســوى تفاصــيل الحياة اليومية كُتب جامعية، دفاتر دراسية، ضحكات مع والدتها وأخواتها وأحلام صغيرة كانت تضيء بيتهم المتواضع في مخيم جباليا للإجئين، لكن الاحتلال لا يترك الأحلام أن تنمو، الإبـادة كـانـت تترصد وتنتظر لحظة التحول لتقلب كل شيء رأسًا على عقب.

مع إشتداد العدوان على قطاع غزة، وجدت علا نفسها تنزح أكثر من عشرون مرة بين مكان وأخر من بيتها إلى بيت جدها ثم بيت أقاربها إلى بيت صديقتها ثم بيتها ثم إلى مدينة غزة التي نزحت بها أكثر من عشـــر مرات، تبحث عن مأوى يكون فيه شـيئًا يشـبه الأمان من القصـف الإسـرائيلي على كل ما ينبض بالحياة، وفي كل مرة تترك خلفها جزءًا من روحها واصـــفة النزوح بســكرات الموت البطئ يليه مشـــقة وتعب التفكير في المكان الذي ستنزح إليه بقولها "وين بدنا نروح".

الإبادة ســرقت منها جدها الأحب لقلبها أبو حســن وعدد كبير من أخوالها وأبناءهما أثر الإستهداف الحربي لمنزلهم في مخيم جباليا، دون أي سابق إنذار أو تحذير، لكن الصـعقة الأشـد والأكبر على قلبها جاءت مع دخول إتفاق وقف إطلاق النار المؤقت في قطاع غزة بين الإحتلال الإسرائيلي وفصائل المقاومة الفلسطينية حيز التنفيذ في منتصـــف يناير ٢٠٢٥، حين تأكد خبر إرتقاء والدتها وأخواتها الخمســـة بعد فقدان الإتصـــال بهم لأكثر من شـــهرين أثناء محاولة نزوحهم لمدينة غزة بعد الإجتياح الإســـرائيلي لمخيم جباليا بداية نوفمبر ٢٠٢٤، تقول علا " لما فقدت امي وإخواتي الخمسة، حسيت انه قلبي صار مقبرة، كل اشي حلو بحياتي مات"

في خضم حزنها على فقدان والدتها وأخواتها الخمسة، تقدم زميلها بالجامعة نسيم أبو صـبحة لخطبتها، ليمنحها شـيئًا يشـبه الأمان لقلبها، كيف لا وهو الذي لفت انتباهها

"طـــيـــور الـحـــب" تقاسما الموت والألم

بخلقه وإبتســامته الدائمة، وســرعان ما أصــبح قريبًا من قلبها وعائلتها، تقدم نســيم لخطبتها في ظروف الموت والدمار، لكنه كان بمثابة طوق النجاة لروحها المنهكة، تقول علا (نسيم دخل حياتي زي الدفا بليالي الشتا، حسيت إنه الله عوضـني فيه بعد أمي وأخواتي الخمسة).

"طـيـــور الـحـــب" تقاسما الموت والألم

خمسة أشهر عاشتهن علا مع نسيم كانت مليئة بالتفاصيل الجميلة، مساعدته الدائمة لها في كل ما تحتاج، زياراته البسيطة، ومزاحه اللطيف الذي يسرق الضحكات من قلبها المتعب، حلموا معًا بالسـفر وبناء مسـتقبل مشـترك، كانا يخططان للزواج بعد إنتهاء الإبادة، يتحدثان عن بيت صـغير يجمعهما، عن تجهيزات حفل الزفاف، وأيام هادئة لم تأتٍ، وتمنّت علا لو أن والدتها كانت حاضـــرة لترى فرحتها بخطبتها وتبارك لها على عريس يشبه الحُلم.

تقول علا "مرة كنت أقرأ إحدى كتب أدهم الشرقاوي يتحدث عن الحب والحرب مر في الكتاب سـؤال "إذا مت في هذه الحرب هل سـترثيني"، روحت عطول بادرت وبعته لنسـيم وأنا بضـحك، رد عليا وهو بيبكي وقلي "ما صـان قلبي حين أكون جوارك، أتظنيه عند فراقك سـيصـون، أم أن بعدك عني سـيهون" وكان يكرر دائمًا "مبدي من الدنيا إلا رضا ربنا ورضاكٍ" حتى أدركت أن في رضا الزوج جنة.

"طـيـــور الـحـــب" تقاسما الموت والألم

تســرد علا يومه الأخير بتفاصــيله الصــغيرة كما لو أنها تعيد شــريطًا محفورًا في ذاكرتها، جلســا في اســتراحة الباقة على شــاطئ بحر غزة، تلك الإســتراحة التي ترتادها العائلات وطلاب الجامعات كمتنفس للهروب قليلًا من واقع القصف والدمار محاولين البحث عن إشـــارة الإنترنت للإتصـــال بالعالم الخارجي والإطمئنان على أهلهم وأصـــدقاءهم وإنجاز دراســـتهم الجامعية ومحاولة الوصـــول لأخر الأخبار والمســتجدات علها تحمل البشــرة لقطاع غزة المكلوم، تبادلا الضــحكات والأحلام، كان الوقت يمضــي مسـرعًا وقائمة الأحاديث المختزنة لا تجد متسـعًا من الوقت كي تروى ولو جلسا دهرين، تارة يخبرها عن السفر سويًا، وأخرى كم يود لو أن والدتها كانت لتراه، والمتبقي من الحديث يروي لها بطولته في الوصـــول إليها وكأنه حقق إنتصـــارات الدنيا أجمع، يقبض على يدها بشــدة طوال الوقت، حتى إذا أتي الحديث عن الموت يطمئنها نســيم أن لا تكترث ولا تخاف طالما أنهم معًا يرتقيان ســويًا، ضحكا معًا، ولم يعرفا أن تلك الضحكات هي الأخيرة.

فجأة دوّى صـوت انفجار عنيف أثر إسـتهداف الإسـتراحة التي يجلسـا بها بصـاروخ من الطائرات الحربية، وتحول المكان إلى دخان وركام، تقول علا: "نســيم قال أي أي وقعت، وأنا لقيت حالي مرمية عالأرض، رجلي بتنزف، ربطتها بشـــرشـــف

"طـيـــور الـحـــب" تقاسما الموت والألم

الطاولة، وتطلعت على نسيم لقيته فاقد الوعي، صـرت أصـرخ عليه، قوم يا نسيم، هي رأسـك ما في شـي قوم، أمانة ضـلك عايش، أحكيلي إنك بخير، بس لما شـفت ظهره بينزف كتير ورجله مليانة دم، قلبي وقع".

نُقلت علا إلى المستشفى بصعوبة بعد إصابة في قدمها تسببت في قطع بعض الأوتار وهي متمسكة بخيط أمل تسأل والدها "كيف نسيم كويس؟ أمانة أحكيلي يابا، حكالي هو بالعناية ممنوع نفوت عنده، أو نعرف اشـــي"، تقول علا "تم علاجي جزئيًا وحملوني بالكرسـي واجت بنت خالي تخبط على كتفي، حكيت الها استشـهد صـح؟ حكتلي هينا جبنالك إياه تودعيه"، تقول علا حين رأته، لم أراه ميتًا، رأيته بدرًا، بل أجمل من البدر، وكأن روحه لم تغادره فهمسـت مودعًة "اللهم أجرني في مصـيبتي وأخلف لي خيرًا منها، إستودعتك الله على أن ألقاك، عشت نسيمًا ورحلت نسيمًا سلم على الأحباب، إلى روح وريحان ورب راضٍ غير غضـــبان" انتهى الحلم الذي رسموه معًا، وتحوّل إلى ذكرى مؤلمة تحت رماد الحرب.

كنت تود علا أن ترثي نسيم ببعض ما في قلبها لكنها لم تفعل فهي ما زالت تراه حيًا لم يمت، وإن أذرفت بعض الدموع تهربًا فما هي إلا من الحنين.

لم يكن ســـهلاً على فتاة في عمر الورد أن تتحمّل كل هذا الفقد، والدتها، أخواتها الخمســـة، بيتها، ثم خطيبها وحبيبها الذي كان عزاءها الوحيد، وبقيت علا أمام إمتحان قاسٍ لكنها رفضـت الإسـتسـلام، تقول بصـوت تملؤه الإرادة "الإنسـان لازم يضـل واقف، حتى لو انكسـر قلبه، لازم يكمل طريقه عشـان يكون قدوة حتى بعد ما يستشهد"

تواصل علا اليوم دراستها الجامعية، وتستعد للتخرج، وتبحث عن فرص عمل لتفتح لنفسها أبواب المستقبل، تتعلم كل ما هو جديد، وتصر أن تبقى على العهد مع نسيم، أن تبقى قوية، ثابتة، لا تسمح للاحتلال أن يطفئ نورها.

إنتهاك الحق بالحياة

قصة علا ونسيم ليست مجرد حكاية عاشقين فرّق بينهما الموت، بل هي شهادة على انتهاك الاحتلال لحق الفلســطيني في أبســط حقوقه، أن يعيش بســلام، أن يفرح

"طـــيـــور الـحـــب" تقاسما الموت والألم

بخطبته، أن يحلم بمسـتقبل زاهر بين الركام، تظل علا شـاهدة على أن الحياة تُنتزع من بين براثن الحرب، وأن الكرامة لا تُقصف، مهما حاول الاحتلال أن يدفنها تحت أنقاض غزة.